القرآن والإسلام ومحمد



ترك د. نصر أبو زيد العديد من الدراسات والأبحاث المخطوطة، كثير منها كتبها بالإنجليزية ولم تترجم حتى الآن. زوجته الدكتورة ابتهال يونس تصدر قريبًا عددًا من هذه المقالات. ومن بينها هذه الدراسة الهامة «القرآن والإسلام ومحمد» يدعو فيها إلى مقاربة القرآن مقاربةً سياقية، تاريخية، باعتباره مجموعة من الخطابات التاريخية التى تلقاها محمد كوحى إلهى. الدراسة ترجمها إسلام سعد.

المقدمة

يعد القرآن بمثابة المصدر الأول والأهم لهؤلاء الذين يرغبون فى فهم الإسلام، سواء كانوا من المسلمين أو غير المسلمين. وبالنسبة للمسلمين، فإن القرآن هو وحى الله، وهو الرسالة التى أرسلها الله من خلال المَلَك جبريل لرسوله «المصطفى» محمد لكى يحدث تحولاً فى حياة أهل شبه الجزيرة العربية؛ بحيث ينتقلون من الشرك إلى الإيمان بإله واحد. ويرى المسلمون أن محمدًا ليس مجرد نبى، ولكنه النبى الأخير فى سلسلة ممتدة من الأنبياء بدءًا من آدم مرورًا بموسى وعيسى وغيرهما.

كل نبى من هؤلاء الأنبياء تلقى من الله نفس الرسالة الأساسية الداعية إلى الإيمان بإله واحد والعمل وفقًا لمجموعة محددة من المبادئ الأخلاقية وهلم جرًا. وبالتأكيد، فإن القرآن لا يعتبر نصًا سهلاً يمكن فهمه بدون معرفة السياق التاريخى الخاص بشبه الجزيرة العربية بشكل عام، والسياق التاريخى الخاص بالمنطقة الشمالية بالتحديد. والسبب الرئيسى لهذه الصعوبة... أولًا، إن القرآن نص تاريخى انبثق فى وقت كان مختلفًا عن وقتنا الحالى فى عديد من الأوجه. إن القرآن برغم مقاربته بما هو حقيقة مطلقة، من وجهة نظر إيمانية، فإنه يقدم استجابة للواقع الفعلى الخاص بعصره. ومن الواضح أن القرآن قد استجاب لأحداث وأنماط من السلوك حدثت فى ذلك الوقت؛ فى بعض الأحيان بشكل صريح، ولكن فى أحيان أخرى بشكل ضمنى. وعندما لا يتمكن المرء من فهم المسار القرآنى فى سياقه التاريخى، فإنه ينقله حرفيًّا إلى عصرنا الحالى، وهذا الأمر من شأنه أن يؤدى إلى عمليات لا حصر لها من التفسير الخاطئ وسوء الفهم.

ولكى نفهم القرآن، يجب أن ندرك أنه، وبالرغم من كونه كلام الله، فإنه نص تاريخى؛ لقد تم النطق والتصريح به، وكتابته فى موقف تاريخى محدد، وفى البيئة الفكرية واللغة اللتين تنتميان للقرن السابع. واستيعاب أساس هذه المعرفة التاريخية الشاملة، وحده، سيُمكننا من تفسير النصوص القرآنية بطريقة صحيحة. وسيسمح لنا هذا الأمر بأن نمسك بجوهر الرسالة الذى يتجاوز سياقه التاريخى، ومن ثم يمكننا أن نقرر ماذا يعنى هذا الجوهر بالنسبة لنا؛ أى بالنسبة لمؤمنى هذا العصر.

القرآن والإسلام

وعلى الرغم من ذلك، فإن الإسلام، كدين، لا يتعلق، ببساطة، بمجرد تفسير ما يحتويه القرآن. إن فهمًا بديهيًّا للدين سيرى أن كل ما يحتاجه الإنسان هو الكشف عن التفسير «الصحيح» للقرآن وبالتالى سيعرف ما يعنيه «الإسلام». وكما هو الحال فى كل الأديان الأخرى، فإن الإسلام هو نتاج التأويلات والخبرات الخاصة بأشخاص، وبالتالى فإن الإسلام قد نما تاريخيًّا. والمسلمون المعاصرون ليسوا هم أول من اشتبكوا مع كتاباتهم المقدسة وسعوا وراء تفعيلها فى مواقف لا تخاطبها هذه الكتابات بشكل صريح. لقد قام مؤمنون من عصور سابقة، ومن بلدان عديدة مختلفة، بفعل ذلك قبلنا، وحصلوا على نتائج متعددة ومتنوعة؛ ولسوء الحظ فإن النقاش السائد بخصوص «الإسلام» يقوم بالتشويش على تاريخيته وتنوع أشكال تطوره.

وانطلاقًا من أن العرب حين بدأوا، على الفور، عقب وفاة محمد فى 632، فى تشييد إمبراطوريتهم، فإنهم لم يفعلوا ذلك من فراغ. وقاموا بالتأسيس على ما وجدوه فى الأراضى

التى غزوها؛ ليس فقط فيما يتعلق بالاقتصاد والإدارة، ولكن أيضًا بالأشكال المختلفة للإيمان. وبجانب إقرار القرآن بالعديد من الأديان مثل اليهودية والمسيحية والصابئية والمجوسية، فإن المسلمين قد اختلطوا، فى الأراضى التى غزوها، بمجتمعات مختلفة من المسيحيين واليهود والهندوس والزرادشتيين. ولا يلزم المرء إلا النظر إلى هذا العدد الكبير من الطوائف والملل المختلفة التى وُجدت، أولاً فى شبه الجزيرة العربية وبعد ذلك فى إيران والعراق وسوريا ومصر وكذلك الهند.

وفى بدايات تأسيس العرب لإمبراطوريتهم، فإنهم قد سلكوا مسلك الغزاة بشكل أكبر من مسلك المسلمين التبشيريين. لقد قاموا بتبنى الإنجازات الحضارية والأفكار الدينية وقاموا بتطويرها إلى التقاليد الحضارية الإسلامية المتعددة التى نعرفها اليوم. ومنذ ذلك الوقت وحتى الوقت الحاضر فإننا قد حظينا بأشكال وتجليات لا حصر لها من الإسلام.

إن هذه التباينات العظيمة فى أشكال الإسلام تعود بشكل كبير إلى التاريخ ما قبل الإسلامى الخاص بكل منطقة. لقد سمحت الثقافات المحلية للإسلام بأن يتطور، فى عديد من المناطق إلى ما نجده اليوم أمامنا. إننا لا يمكن أن نتخيل الإسلام بدون التراث الحضارى للهند وإيران وإندونيسيا وكذلك الحضارة اليونانية.

لم يمتد الإسلام من شبه الجزيرة العربية، ببساطة، لينتشر ويهيمن على هذه الأراضى. فهذا هو تصور الأصوليين؛ الذين يجادلون لصالح الاعتقاد المبنى على أن كل شىء يتعلق بروح الإسلام وثقافته يمكن أن يوجد فى هذه السنوات المبكرة، وفى النص المؤسِّس.

وفى الواقع، دخل الإسلام فى علاقة مع ثقافات العالم تقوم على التبادل المشترك، وما زلنا، وحتى يومنا هذا، نرى هذه العلاقة وهى تتجلى أمامنا على نحو واضح حينما ننظر إلى الأشكال الواقعية/ المادية للإسلام الذى يُمارس فى الحياة اليومية فى كل العالم. هنا، يمكننا أن ندرك تنوعه وديناميكيته الفعلية.

وفيما يتعلق بهذه الظاهرة التاريخية التى نبعت من التأثيرات الثقافية المتبادلة، يجب علينا أن نفرق/ نميز بين القرآن كمعطى ثابت، وبين الإسلام. ومن خلال هذا التمييز، فإننا سندرك أن الإسلام من صنيع الإنسان ويستوى فى ذلك مع كل دين. وربما يبدو من قبيل التناقض، وبالتحديد، حينما أصبح الفهم التقليدى والمعيارى/ القياسى يُميز بين «الإسلام»، «الدين النقى» كما كان، وبين «المسلم». وبالرغم من ذلك، فإن الدين يُشكله الناس، وكون الدين من صنيعة الإنسان لا يعنى أننا نقلل من أبعاده الميتافيزيقية والمتعالية. ليست هناك حاجة لإنكار المصدر المقدس للنصوص.

إن فكرة النبوة تعنى أن اللّه يتحدث إلى إنسان/ وكيل؛ أن اللّه يخاطب الإنسانية من خلال أشخاص اصطفاهم وأوحى لهم من خلال اللغة البشرية. ويسعى البشر لفك/ فهم وحفظ وتطبيق هذه الرسالة خلال عمرهم الزمنى المحدود، على قدر استطاعتهم. وتتبنى المدارس اللاهوتية المختلفة وجهات نظر متعددة وتسعى لعرضها؛ كل مدرسة بطريقتها الخاصة. ويجعلنا هذا الأمر نفهم أن تاريخ الإسلام الذى نتحدث عنه اليوم، بدون تردد، لم يكن فى وقت من الأوقات فهمًا محددًا وصحيحًا ثم حدث له أن فسد فى وقت لاحق. وعندما ينظر المرء إلى إسلام القرون السابقة، فإنه يلحظ كيف كان الإسلام حركيًّا/ ديناميكيًّا. لقد استمر الإسلام فى تغيير وتطوير عديد التأويلات وتأسيس التقاليد اللاهوتية، وكذلك ملاحظة الطقوس والممارسات المختلفة. وفى تاريخ الإسلام الذى تطور خلال الحقبة الزمنية المحددة ما بين القرن 7 والقرن 14، فإن كل المعرفة التى تكونت فى العالم قد اندمجت وتم استيعابها/ احتواؤها فى مجمل الثقافة الإسلامية.

إن التاريخ هو الساحة التى يجب أن يُدرس فيها الدين، وذلك لأنه ليست النصوص وحدها هى المحددة لاتجاه تطور أى دين. إن النص يمكن تأويله بطرق عديدة لكى يكون قادرًا على إجابة الأسئلة التى يثيرها المجتمع فى الحياة العملية.

يمكن لأى شخص أن يفسر نصًا وأن يقدم تأويلاً وتأويلاً آخر لهذا النص، وهذا هو السبب وراء تميز لغة النصوص؛ إن تميزها يكمن فى كونها محملة باحتمالات عديدة للمعانى.

إن ما أحاول قوله هو أنه لا يمكن لنا أن نجد معنى الدين فى النص، وإنما سنجده فى التفاعل الحادث بين النص وحركة التاريخ أو المعالجة التاريخية للنص، ومن خلال التفاعل بين المؤمنين/ المجتمعات وبين نصوصهم المقدسة، وبالطبع فإن هذا لا يعنى أن الإنسان لا يستطيع أن يتحدث عن الدين بشكل معيارى، ولكن هذا المسار المعيارى محدد تاريخيًّا، وبالتالى، فهو قابل للتغيير؛ إنه معيارى طبقًا لأنموذج البيئة الاجتماعية المحددة؛ بحيث يصبح أى تغير فى الأنموذج مؤديًا لتغير فى المعيارية.

القرآن والتاريخ: التأويلات المنفتحة

على الصفحتين التاليتين اسم الجلالة مستخرج من «مجموعة أحاديث نبوية وابتهالات»، أنهى نسخها الخطاط المغربى القدير «القندوسى»، 1828 م



مولانا
جل جلاله
الحمد لله الذي حمد نفسه بجميع المحامد وسمى نفسه الرحمان الرحيم



رسول الله صلى الله عليه وسلم

لقد قمت بتطوير منهج تاريخى محدد لفهم الإسلام وتأويل القرآن، إنه منهج تاريخى من شأنه أن يُمكّننا من إدراك جوهر الإسلام والذى يعتبر شيئًا متأصلًا فيه من خلال اعتقادات ومبادئ معينة. ومع ذلك، فإنه يجب علىَّ أن أؤكد أن هذا هو فهمى للإسلام، وهو فهم تكون وتشكل فى زمن محدد، وفى ظل ظروف محددة، وبالتالى فإنه ليس فهمًا مطلقًا أو من شأنه أن يستمر للأبد. إنه فهم يحتاج إلى مزيد من التأويل وإعادة التأويل؛ وبالتالى فإنه يجب أن يكون منفتحًا، مرارًا وتكرارًا؛ إنه ليس فهمًا منغلقًا ولا مطلقًا؛ وإلا فإننى، وببساطة، سأخلق دوجما أخرى.

اعتقادى هو أننا نحتاج إلى قراءة مستفيضة تاريخيًّا للقرآن. إن هذه القراءة لا تهتم فقط بفهم الدين الإسلامى كظاهرة تاريخية ولكنها، أيضًا، تهتم بفهم القرآن نفسه كما تموضع فى سياقه التاريخى من خلال زرعه فى هذا السياق. إن هذا الأمر لا يعنى وجود بعض الآيات القرآنية التى تمتلك لغة تفسر نفسها بنفسها، ودائمة، وبعض الآيات الأخرى التى تعتبر مقيدة بوقت معين. لا، إن القرآن فى مجمله له بعد تاريخى من المهم إدراكه للفهم.

وبدون وجود فهم للقرآن، ككل، باعتباره ظاهرة تاريخية، فإن المرء لن يستطيع أن يميز تمييزًا محسوسًا بين أجزاء القرآن التى لا تزال تمتلك نفس المعنى الحرفى حتى يومنا هذا، وبين أجزاء القرآن التى اكتسبت تأويلًا مجازيًّا ورمزيًّا من خلال السياق الثقافى المتطور وبين الأجزاء المحددة أو المُقيدَة بموقف تاريخى محدد. إن هذا الأمر ليس فقط مجرد شرط أولى لفهم صحيح/ لائق للقرآن ولكنه أيضًا من أجل فهم أى نص مكتوب بشكل عام. إن فهم القرآن يساعدنا على الانتقال من أسلوب التعبير وصياغة الكلمات إلى جوهر الرسالة الذى لا يزال ملائمًا لعصرنا الحالى. إن هذه هى المهمة المشتركة للتأويل النقدى الفيلولوجى، والنقاش اللاهوتى. ومع ذلك فإنه لا بد لنا أن نبدأ بالحقائق الإمبريقية المُسلم بها.

لقد قمت بتطوير منهج تاريخى محدد لفهم الإسلام وتأويل القرآن، إنه منهج تاريخى من شأنه أن يُمكِّننا من إدراك جوهر الإسلام والذى يعتبر شيئًا متأصلًا فيه من خلال اعتقادات ومبادئ معينة

أعلن محمد للمرة الأولى، فى عام 610، أن المقدس/ الإلهى قد تواصل معه بينما كان يتأمل فى غار حراء خارج مكة، وأنه قد تلقى رسالة من اللّه وتم تكليفه بنشر هذه الرسالة فى مجتمعه. ولو لم نقم بتوضيح الخلفية التاريخية، فلا بد أنه سيبدو من المحير حقًّا سبب ظهور نبى عند العرب فى ذلك الوقت. بالتأكيد هناك تفسيرات لاهوتية. يُقال غالبًا إن الوُحِى- جمع وحى- السابقة على الإسلام قد تم تحريفها، وأُرسل محمد برسالة جديدة لا شائبة فيها. سيُجيب علماء اللاهوت بهذه الإجابة، ولكن هذه الإجابة لا تمثل تفسيرًا كافيًا من الناحية التاريخية. وباستقلال تام عن إيمان المرء بالتفاصيل، أيًّا كانت، فإن الخلفية التاريخية تفسر سبب تأسس الإسلام فى هذا الوقت وهذه المنطقة. لقد وفر الإسلام إجابة لأسئلة مُلحة طرحها العرب بخصوص القضايا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية. أحب أن أنوه أنه، وفى ذلك الوقت، لم تكن هذه المجالات سالفة الذكر منفصلة عن بعضها البعض؛ لقد كانت القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، من جهة، لا تنفصل عن القضايا الدينية من جهة أخرى. لقد وفرت الحصيلة اللغوية الدينية فهمًا وتفسيرًا لكل شيء تقريبًا.

محمد والقرآن

ماذا كان يفعل محمد فى غار حراء عندما تواصل لأول مرة مع المقدس/ الإلهى؟ ما نوع

التأمل الذى انخرط فيه؟ هل كان منتميًا إلى طائفة دينية ما؟

يرفض أغلب المسلمين الفكرة القائلة بأن محمدًا انتمى إلى طائفة دينية محددة. ويفترضون، ببساطة، أن محمدًا لم يكن مرتبطًا بأى نوع من أنواع الممارسة الدينية. وعلاوة على ذلك، فإن كُتاب السيرة النبوية المحمدية يحاولون التأكيد على مهمة محمد النبوية، غالبًا، من خلال رسم صورة له باعتباره قد عزل نفسه عن مجتمعه، ولكن يظل هذا الأمر غير قابل للتصديق.

لو أن محمدًا كان معروفًا فى مجتمعه كشخص ذى كفاءة وموهبة، فإننا لا يمكن أن نتخيل أن مثل هذا الشخص سيكون منعزلًا عن كل النشاطات المجتمعية. كما نعلم أن سيدة الأعمال، الأرملة خديجة، التى أصبحت بعد ذلك زوجته الأولى، قد قامت بتعيينه كقائد لقافلة بفضل أمانته وموهبته وخبرته.

ومن خلال هذا العمل، سافر إلى سوريا فى أغلب الأوقات. إن زواجه من سيدة أعمال غنية يوضح أنه قد أظهر صفات محددة كرجل وكرفيق فى إدارة الأعمال. يجب علينا أن نفهم محمد باعتباره شخصًا نشطًا فى مجتمعه قبل أن يوحى إليه. ومهما بدا الأمر، فإن الذهاب إلى جبل بغرض القيام بممارسات تأملية لهو من قبيل الممارسة الدينية، وهى ممارسة تنبع من تقليد معين. ونحن نعلم من الرهبان أنهم ينشدون الأماكن البعيدة. لم يتم بناء الأديرة فى وسط المدن أو القرى، ولكن على امتداد الطرق أو على قمم الجبال. وبالتالى اتبع محمد ممارسة كانت معروفة فى شبه الجزيرة العربية وما حولها، وهى ممارسة انتشرت من خلال تقاليد دينية معينة. لا أريد أن أدعى أن محمدًا كان مسيحيًّا أو يهوديًّا؛ ومع ذلك فلا بد أنه قد امتلك نزوعًا دينيًّا محددًا، وتوجهًا ما، ومعرفة محددة بتقليد معين، أدت به إلى أن يمارس أشكالًا دينية محددة، مثل التأمل/ التفكر فى الجبل.

إن هذه القراءة لا تهتم فقط بفهم الدين الإسلامى كظاهرة تاريخية ولكنها، أيضًا، تهتم بفهم القرآن نفسه كما تموضع فى سياقه التاريخى من خلال زرعه فى هذا السياق



وبالرغم من ذلك، يبدو أنه لم يكن مستعدًّا لما حدث له بعد ذلك. فى هذا اليوم، رأى محمد مَلَك اللّه فى السماء فشعر محمد حينها بالخوف. وحينما بدأ هذا المَلَك بالتواصل معه، لم يعرف محمد ماذا كان يحدث على وجه التحديد. لقد خشى أن يكون الشيطان قد مسه على نحو قاهر يعجزه عن رده. وعندما عاد إلى منزله عند خديجة، كان يرتعد من الخوف وحاولت خديجة أن تهدئ من روعه. ولكى تخفف عنه هذا التوتر أخذته إلى الكاهن المسيحى (ورقة بن نوفل)، ابن عمها، فأخبره محمد بالتجربة التى مر بها. وقال له ورقة بن نوفل:

«يا بنى، إن هذا هو الروح القدس، ليتنى أكون حيًّا؛ لأدعمك عندما يُخرجك قومك من مكة». وسأله محمد: «أوَمُخرجىَّ هم؟»، فأجابه ورقة بن نوفل: «نعم؛ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى (أى: تمت معاداته)». هذا هو ما أخبرت به خديجة زوجة محمد وحبيبته.

لقد مثل الروح أو المَلَك الذى أفزع محمدًا، بالإضافة إلى نقاشات محمد مع خديجة وابن عمها، بداية ظهور محمد كنبى. فى هذه البداية لا يسع المرء إلا إدراك عملية تفاعل تستمر بين الرسالة المقدسة/ الإلهية والتلقى الإنسانى لهذه الرسالة.

وعندما ننظر إلى محمد، باعتباره المتلقى الأول لهذه الرسالة، فإننا نرى أنه لم يتلق الرسالة بطريقة هادئة ورصينة. إنه لم يكن مستعدًّا، بأى حال من الأحوال، لإدراك أن ما حدث له كان مرتبطًا برسالة مقدسة/ إلهية. لقد كان ممتلئًا بالخوف والشك. ولقد سعى وراء النصيحة والتحقق من صدق التجربة التى مر بها من الآخرين، وبالتالى احتاج إلى أناس يطمئنونه ويقولون له: «يا ولدى، كل شىء سيسير على ما يرام.. لقد مر رسل من

قبلك بمثل ما مررت به. لا تخف- بالرغم من أنه سيتم اضطهادك». لم يكن المقدس، إذن، هو الوحيد الذى يتحدث هنا، يجب التثبت من هذه الرسالة من خلال البشر، فى هذه اللحظة الأولى التى مثلت نزول الوحى على محمد.

وفى تقديرى، فإن هذا أمر لا يرغب كثير من المسلمين فى سماعه. إنهم ينزعجون ويصابون بخوف من أن توضع أصالة النبى والقرآن فى محل الشك أو التساؤل، هذه هى الحقائق التاريخية التى تخبرنا بها المصادر الإسلامية- ونحن لا نتحدث عن المصادر الرومانية أو أى مصادر أخرى.

إن الحقيقة بأن محمدًا قد سعى للتثبت من أناس آخرين، وبالتحديد من كاهن عربى مسيحى، لا يختزل من أصالته أو أصالة وحيه، بل العكس من ذلك. وفى هذه القصص التى تتحدث عن خوف محمد واصطحاب زوجته له، لابن عمها، فإننى أرى أننا نتعامل مع شخص جاد جدًا وذى ضمير حى؛ شخص لا يقبل المُسلّمات ولكنه يتساءل دائمًا ويحاول أن يغوص أكثر فى عمق الأمور وأن ينظر بعمق. إنه لا يريد أن يتجنب سؤال: كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ وبالمناسبة، فإن هذا يمكن أن يسوق لنا مثالًا على العقلية النقدية التى امتلكها محمد.



اسم الجلالة مطرز بالحرير على الجلد بداخل نص كله أحاديث نبوية ودعوات لـ «القندوسى»، أواخر القرن التاسع عشر

التواصل بين المقدس/ الإلهى والإنسان

إن هذه العملية- عملية التواصل بين المقدس/ الإلهى والمتلقى الأول «محمد» - كانت تتطلب تأكيدًا بشريًا من أناس بعينهم، وهو الأمر الذى ميز فترة الوحى القرآنى بالكامل (612–632)؛ إن هذا التواصل المتبادل «التفاعلى» يمثل العملية التى شكلت القرآن. من الواضح أن القرآن لم يُمنح لمحمد فى شكل كتاب كامل، ولكن الوحى نتج عن حوار معقد بطريقة جدلية ومن خلال التنقل من موضوع لآخر.

إن كلمة (جدلى) قد تثير بعض الدهشة فى هذا السياق، ومع ذلك فإن هذا الجانب يمكن أن يوجد فى المصادر الإسلامية وفى القرآن. إن أول لقاء لمحمد لم يكن مع اللّه، بل كان مع المَلَك. وفى هذا اللقاء تم تقديم الوحى بصورة شخصية وحميمية باعتباره وحى رب محمد. وفى الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، تم تأسيس هذه العلاقة الحميمية شديدة القرب، بين محمد واللّه بواسطة المَلَك. وبعد ذلك تم تقديم اللّه باعتباره الخالق، الذى خلق الإنسان (من علق). وهو الذى علم الإنسان ما لم يعلم. إن المسار الأول للوحى لا يتناول محمدًا كرسول؛ فلا توجد رسالة هنا لكى يتم نقلها للآخرين، إن محمدًا هنا يخاطبه اللّه باعتباره شخصًا مقربًا ومميزًا.

فى اللقاء الثانى تم تكليف محمد برسالة يحذر من خلالها الناس من عقاب اللّه فى الحياة الآخرة كما يدعوهم إلى طريق الحق. «يَا أَيهَا الْمُدثِرُ. قُمْ فَأَنذِرْ» إن هذا التكليف يوجد فى الآيات العشر الأولى من سورة المدثر. وهذه الآيات تحتوى على تحذير من يوم القيامة؛ وأنه قد حان وقت التوبة. هذه الرسالة المركزية. هنا تظهر الصفة الجدلية للقرآن: إن الشخص المقرب جدًا ووثيق الصلة بالإلهى/ المقدس قد تم اختياره لينبه أهله لضرورة التوكل على رب الكون وأن يعبدوا اللّه الواحد. وبالرغم من أن التكليف ليس صريحًا، فإن مهمة الإنذار هذه تشير ضمنًا إلى أن المجتمع فى حاجة إلى إصلاح. ويمكن لأى إنسان أن ينتقل من الرسالة الأولى إلى الثانية ومن ثم إلى الوحى التالى. وقد استمرت عملية الوحى هذه لمدة 23 سنة حتى وفاة محمد. لم يُرسل القرآن مرة واحدة أو فى جلسات قليلة، ولكنه أُرسل، غالبًا، على هيئة رسائل قصيرة، وأحيانًا أكثر طولًا. لقد كانت عملية اتصال متتالية مستمرة وكانت تتم كما يلى: لقد تفاعل محمد مع التواصل الأول بطريقة محددة والتى تتم مخاطبتها فى التواصل الثانى كما شرحنا منذ قليل. وبعد الرسالة الثانية أعلن محمد مهمته لأهل مكة، ولقد كان هناك ردود فعل مختلفة، يخاطبها التواصل الثالث.. وهكذا وهكذا.

إن هذه العملية الاتصالية تحتوى على كل العناصر الممكنة للتواصل: الجدل، النقاش، الإقناع، التحدى، والحوار- وهو حوار تركز بشكل حصرى، غالبًا، على عدد صغير من الجمهور، وفى أحيان أخرى على عدد أكبر قليلًا.

إن الجانب المتعلق بعملية التواصل والذى يأتى فى المقدمة يعتمد على الجمهور والتفاعل مع الوُحِى السابقة وموقف محمد ومجتمعه. إن هذه العملية من التواصل أو الاتصال الوحيِّ، تتضح بشكل جلى فى القرآن. ولذلك، يجب التحدث عن عملية حوار أو عن شكل معقد

من الاتصال أو التواصل بين المقدس/ الإلهى والبشر.

وبعد وفاة محمد، شعر المسلمون الأوائل بالحاجة لجمع هذه المسارات أو السياقات معًا فى كتاب واحد؛ أى الحاجة إلى كتابة التواصل الشفهى بغرض حفظه. وقاموا بتنظيم هذه المسارات وترتيبها فى سور دون أخذ الترتيب الزمنى الأصلى للنزول فى الاعتبار. إن ترتيب المصحف الحالى يقدم هذه السور مرتبة من حيث الطول؛ توضع السور الأطول فى المقدمة وتأتى بعدها السور الأقصر، برغم أنه من المعروف، على العموم، أن السور الأقصر أتت فى مرحلة زمنية مبكرة عن السور الأطول. إن أغلب السور القصيرة يمكن تحديدها بأنها قد نزلت فى مكة والأطول فى المدينة. والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة هى السورة الافتتاحية القصيرة التى وضعت فى بداية المصحف بحيث تتطابق مع اسمها (الفاتحة).

فى المصحف الحديث المطبوع، والمعروف باسم «مصحف القاهرة»، توجد إشارات تحدد إذا ما كانت السورة مكية أو مدنية، بالإضافة إلى تحديد أجزاء السور الموجودة فى السور المدنية والتى تنتمى للحقبة المكية وكذلك تحدد السور المكية التى تنتمى إلى الحقبة المدنية. ولكن يجب على المرء أن يكون حريصًا فى تعامله مع هذه الإشارات؛ لأن بعض الأجزاء التى يقال إنها من مكة قد ثَبت أنها من المدينة والعكس كذلك صحيح.

إن السور المكية الآن تصنف فى 3 تصنيفات من حيث الحقبة الزمنية، كَسور مكية «مبكرة ووسطى ومتأخرة»، بفضل الجهود المبذولة بواسطة الباحثين الغربيين الذين توصلوا إلى التمييزات الفيلولوجية، وقارنوا بين المصادر والأدلة الأخرى. وبالنسبة لأغلب الأكاديميين المسلمين، فإن الاهتمام الرئيسى ينصب على الفوارق ما بين الفقرات المكية والفقرات المدنية والتى يمكن التمييز بينها بسهولة فى بعض الأحيان وبشكل متعثر فى أحيان أخرى. إن هذه هى القضية التى تمت معالجتها فى المصادر التفسيرية الكلاسيكية وفى سيرة النبى والأحاديث. إن إعادة تأسيس/ بناء الترتيب الزمنى الدقيق لكل السور أمر يقترب من الاستحالة.

والتمييز بين القرآن المكى والمدنى هام للغاية لكى نصل إلى أوامر ووصايا القرآن النهائية المتعلقة بالقضايا التشريعية حيث يسود الاعتقاد بأن بعض الأحكام التشريعية المبكرة قد تم استبدالها بأحكام تشريعية لاحقة فى المدينة؛ وهذا يتم طبقًا لعملية النسخ. بل إن معرفة ما أتى أولًا ثم ما تلاه فى الوحى المكى أو المدنى، لهو أمر أكثر أهمية. إن هذه العملية، ككل، من حيث الجمع والترتيب أدت إلى نتيجة صار القرآن الذى بين أيدينا الآن، فى المصحف، على إثرها، لا يعكس العملية الديناميكية التى جاء بها للوجود من خلال أشكال متعددة من التواصل.

محمد: المتلقى الأول

يُعتقد أن السنة التى وُلد فيها محمد هى 570 بعد الميلاد؛ وبالرغم من ذلك، يمكن أن يكون ميلاده قد حدث بعد هذا العام بعدة سنوات. تُوفى والده قبل أن يولد وماتت أمه عندما كان فى السادسة من عمره. ومنذ ذلك الوقت، عاش مع جده ثم مع عمه أبى طالب. تنتمى عائلته إلى قبيلة قريش وهى تمثل العصبة ذات النفوذ الأكبر والأكثر ثراءً فى الحجاز فى ذلك الوقت. ولقد تواجد فى قريش عشائر/ عائلات ثرية وكذلك عشائر/ عائلات أقل ثراءً، ويبدو أنه وبرغم أن جد محمد كان زعيمًا فى قريش، إلا أن محمدًا كان ينتمى إلى عائلة فقيرة.

لـ «القندوسى»، 1850 م

ويمكننا أن نرى حديث القرآن عن اليتامى ومشاكلهم. ويتم الإشارة إلى محنة محمد كيتيم وكطفل فى حاجة إلى عائلة فى سورة الضحى.

ونعرف من التراث أن الشخص الذى سيصبح بعد ذلك النبى كان محترمًا واجتماعيًّا ومنفتحًا- وهذه الصفات ضرورية فى أى نبى. إن النبى الذى يريد أن يصل إلى معاصريه يلزمه امتلاك علاقات جيدة معهم. كذلك يجب أن يتحلى بالقدرة على التواصل وأن يمتلك القدرة على الإقناع. وقد عُرف محمد، من خلال معاصريه بصفة مثل صفة الأمين والتى تُظهِر موهبته الاجتماعية والتواصلية. كيف كان سيتأتى له أن يكسب ثقة خديجة، بل وأكثر من ذلك؛ تعاطفها وحبها، بدون هذه الصفات والمؤهلات الشخصية؟ وفى الخامسة والعشرين

من عمره، تزوج سيدة الأعمال الثرية والتى تكبره بقدر ملحوظ، وهى السيدة التى كان يعمل عندها كقائد لقافلتها التجارية. لقد منحه هذا الزواج دعمًا إضافيًّا، وعلى المستوى المالى كذلك.

ربما كان التحرر النسبى من القلق على المستوى المادى هو الذى مَكن محمدًا من أن يحصل على وقت يكرس فيه نفسه للتأمل الهادئ. لم يعد يحتاج للقلق بخصوص ما سيتعامل معه فى المستقبل. بالإضافة إلى الدعم الشخصى الذى منحته له خديجة من خلال تشجيعه لاستغلال الفرصة لكى ينخرط أكثر فى العالم الروحانى.

وعندما يخبر معاصرو محمد عن شخصيته الحالمة والمحبة للخير فى تعامله مع الآخرين، فإن العديد من الناس اليوم يرون أن هذه الشخصية لا تتوافق مع حقيقة كون محمد قائدًا سياسيًّا، وفى حالات عديدة، قائدًا عسكريًّا. حتى وإن تحلى شخص ما بصفة الطيبة وحب الخير للآخرين، فإنه عندما يتولى القيادة سعيًا وراء حياة نزيهة، يلزمه إصدار أحكام وقرارات، وفى بعض الأحيان، ضد مصالح أناس آخرين. ومن خلال محاولة تسعى لفهم شخصية محمد، فإننا يجب أن نأخذ تطوره بعين الاعتبار. فى الفترة التى تحددت بالوحى المبكر فى مكة، نجد أن حياة محمد كانت محددة بالبحث الروحى والتأمل. وبعد ذلك، كقائد للمجتمع فى المدينة، كان يقع على عاتقه تنفيذ مسئوليات عملية للحد الذى لم يوفر له وقتًا لكى يجمع كل النصوص الموحاة.

لا يجب علينا، بأى حال من الأحوال، أن نرسم تصورًا لمحمد باعتباره شخصية غير قابلة للتغيير. لا يوجد شخص يحتفظ بنفس الشخصية ولا يتطور أبدًا وبالأخص عندما تتغير ظروف حياته ومهمته بهذه الدرجة الحادة. ومع ذلك، فلا يجب علينا أن نبالغ فى هذه الصفات التى يفترض أن تكون متناقضة. ويمكننا القول بأنه حين أصبح رجل أعمال، فإنه قد كان صاحب تفكير عملى وعضوًا ناجحًا فى المجتمع بمكة بالفعل. وبالرغم من ذلك، فإنه لم يتخل عن طبيعته التأملية. وبالإضافة إلى الوُحِى السابقة، فإننا نمتلك روايات وشهادات لمن عاصروه وشهدوا هذا الأمر فى كل مراحل حياته.

إن الإحساس الدينى العميق عند محمد، بالإضافة إلى مهاراته الاجتماعية والسياسية المميزة، كل ذلك يتجلى فى الأحداث التى صاحبت الهجرة، وهى هجرة المجتمع المسلم من مكة إلى المدينة لمسافة 300ميل فى اتجاه الشمال. وأثناء تواجده فى مكة، لم يدرك محمد مهمته باعتبارها الدعوة إلى دين جديد. ويرد، فى أكثر من مكان فى القرآن، أنه كان يجب على محمد أن يقدم للعرب نفس الرسالة التى تم تقديمها من قبل للمسيحيين واليهود. وفى سورة يونس من القرآن، يقلل القرآن من شك محمد فى مهمته من خلال حثه على أن يسأل اليهود والمسيحيين:

«فَإِن كُنتَ فِى شَكٍ مما أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَق مِن ربكَ فَلَا تَكُونَن مِنَ الْمُمْتَرِينَ» (94).

كانت مهمة محمد فى هذه السنوات فى مكة تتمثل فى أن يكون مُنذرًا. ومن المعلوم الآن أن مشركى مكة لم يتلقوا الرسالة بصدر رحب. تعرض المجتمع المسلم للاضطهاد والكثير من العداء حتى أصبح بقاؤهم على قيد الحياة أمرًا مُهددًا.

فى البداية، اقترح محمد أن يذهب المسلمون إلى الحبشة باعتبارها مكانًا يوفر لأتباعه أمانًا أكثر. فر بعض المسلمين إلى الحبشة المسيحية، وعادوا بعد ذلك إلى مكة أو المدينة عندما زال الخطر. انخرط محمد فى مناقشات مع القبائل



... هنا، ندعوكم إلى أن ننظر للشخصيات الدينية على ضوء خلفياتها التاريخية، وعلى ضوء احتياجاتها فى زمنها، والحكم عليها وفق السائد فى زمانها وليس وفق السائد فى حاضرنا



الأخرى التى أتت إلى مكة للتجارة فى موسم الحج بالنيابة عن الآخرين وعن عائلته. ولقد كُللت مساعى محمد فى النهاية بالنجاح مع وفد المدينة الذى، وبشكل مدهش، لم يوجه أعضاؤه الدعوة لمحمد، بشكل أساسى، على أسس دينية ولكنهم استجلبوه كوسيط للصلح بين القبائل المتنافسة والمتصارعة بخصوص من يسيطر فيهم على المدينة، وهو الصراع الذى أدى إلى حدوث فرقة كبيرة بين سكان المدينة. إن مجىء محمد للمدينة فى عام 622، ليتولى هذه المهمة يدل على أنه، فى ذلك الوقت فى المدينة، قد ذاع صيته كقائد ووسيط للصلح. وبالتالى استمر دور محمد كقائد سياسى فى النمو. وقد تمنى أن يدعمه المجتمع اليهودى فى المدينة على الأساس المشترك بينهما؛ ألا وهى فكرة التوحيد. ومع ذلك فإن هذا الدعم لم يكن جاهزًا ولم يكن وشيكًا كذلك. ونجد أن العديد من المواقف فى القرآن تدل على حدوث انفصال بين مجتمع محمد والقبائل اليهودية، ولكن، حدث كل ذلك بعد سنتين من الهجرة.

إذا نظرنا للكيفية التى يجب أن يتصرف وفقًا لها أى نبى، من وجهة النظر اللاهوتية المسيحية، وقمنا بتطبيقها على محمد، فإن هذا الأمر يُعد ظلمًا لمحمد. أولاً، لأن موقف محمد يمكن أن يُقارَن بموقف موسى ولكن، فى الواقع، تُعد كل هذه المقاربات دليلًا على المقاربة اللا- تاريخية. كان يجب على كل نبى أن يساير مهامه المحددة فى حياته، وفقًا لظروفه. لم يخسر محمد صفاته الإنسانية وهو يسعى لإنجاز مهامه، كما أنه لم يفسد. من المهم جدًّا التأكيد على هذه النقطة، لأن شخصية محمد فى الغرب قد أصبحت سببًا فى تولد خطاب نقدى شديد، وفى أحيان أخرى خطاب كراهية، ودائمًا يتم قياس الأمر وفق المعيار اللاهوتى المسيحى. لم يكن محمد مجرد شخصية ذات قيمة روحية عالية؛ لقد أظهر كذلك مقدرة سياسية بالإضافة إلى كفاءة عسكرية فى قيادته. إن كل هذه الملامح تنتمى إلى رؤية كاملة لشخصيته ككل. عندما يستخدم أى إنسان أى معيار حديث، وبالتحديد من خلال الرؤية المسيحية للكيفية التى يجب أن يكون عليها النبى، فى الحكم على محمد، فإن هذا يعتبر من قبيل الظلم. وعندما يتم انتقاد الحقيقة القائلة بأنه كان يمتلك رغبات وطموحات دنيوية، وأنه سار وراء اهتمامات مادية وقاتل من أجل أن يحيا مجتمعه، فإننا نخطئ فى الحكم المتعلق بالسياق التاريخى لهذا النبى بالتحديد. وبناءً على كل ما عرفناه عن محمد، يمكننا القول بأنه كان جادًّا وذا ضمير حى فى كل أفعاله. ومن الطبيعى أن يتم التشكيك دائمًا فى صحة بعض القرارات بأثر رجعى. هنا، ندعوكم إلى أن ننظر للشخصيات الدينية على ضوء خلفياتها التاريخية، وعلى ضوء احتياجاتها فى زمنه، والحكم عليها وفق السائد فى زمانها وليس وفق السائد فى حاضرنا. إن هذا الأمر لا يتعلق بتعاملات محمد السياسية فقط، وإنما يمتد إلى حياته الشخصية كزوج وأب. غالبًا يتم توجيه اللوم لمحمد لزواجه من عديد من الزوجات بعد موت خديجة ويُلام أيضًا على أن إحداهن- عائشة- كانت تبلغ من العمر تسع سنوات وقت زواجه منها. ووفق وعينا الحديث، فإن هذا الأمر يبدو فى غاية السوء والقسوة، ومع ذلك، لم يفكر أحد فى هذا الأمر، آنذاك، على أنه أمر مروع. يجب علينا أن نرى ما أصبحت عليه هذه المرأة صغيرة السن بعد ذلك. لقد كانت واحدة من أهم الشخصيات فى مرحلة الإسلام المبكر، كما تم اعتبارها واحدة من السلطات فى المجتمع المسلم الناشئ بعد وفاة محمد. يجب علينا أن ننتبه جيدًا للمعرفة التى اكتسبتها عائشة، ليس فقط فى الأمور الدينية، ولكن أيضًا فى الأمور السياسية. لا يساورنا الشعور بأن زواج عائشة من محمد قد أوقف تطورها، بل العكس هو ما حدث. ليس الهدف هنا هو الدفاع عن محمد ولكن الهدف يتمثل فى أن نفهمه. إن كل شىء يمكن أن يعتبر غير تاريخى طالما يتم الحكم وفقًا للمعيار الشخصى للمرء. على كل من يرغب فى معرفة طبيعة الشخصية المحمدية أن ينظر إلى ما حدث فى ذلك الوقت.

محمد فى القرآن

إن المطالبة بإنتاج فهم وفق السياق التاريخى لا يتم توجيهها، فقط، للمسلمين الذين يملكون أحكامًا مسبقة، ولكن أيضًا تُوجه إلى المسلمين الذين يبدو وكأنهم قد نسوا كل شىء. إن محمدًا بشر! والقرآن نفسه يؤكد على هذه الحقيقة مرارًا وتكرارًا، ويوضح أن محمدًا قد ارتكب أخطاء. وترد فى القرآن، تعليقات نقدية شديدة القوة بخصوص بعض التصرفات التى صدرت عن محمد. وعلى سبيل المثال عندما أتاه رجل أعمى يسأله النصيحة، كان محمد مشغولاً بتكريس انتباهه لقادة القبائل الذين حاول أن يحصل على دعمهم، ولم ينتبه إلى هذا الرجل الأعمى. يتخذ القرآن منحى نقديًّا ويلومه بشكل صريح، لأنه تجاهل هذا الرجل، وهو الأمر الذى ورد فى سورة عبس حيث تتم مخاطبة محمد بصيغة الغائب، وهو نوع من أنواع التجاهل الذى يستخدمه اللّه فى الخطاب ليوضح لمحمد كيف يشعر المرء حين يتم تجاهله. عندما يتحدث شخص مع شخص

آخر مباشرة، فإن الشخص الأول ينظر إلى وجه الشخص الثانى ويخاطبه. هنا يختار القرآن أن يستخدم صيغة الغائب فى مخاطبة محمد، والذى تتم مخاطبة إمكانية وقوعه فى الخطأ بحكم بشريته، فى القرآن. لم يكن محمد خاليًا من الأخطاء. عندما نقرأ القرآن بهذه المعرفة، فإن ذلك لا يتم لتبرير تصرفات محمد ولكن يتم ذلك لنفهمه. ويتعين على كل شخص أن يفهم ذلك. يجب على المسلمين أن يدركوا أن عظمة محمد لا ترتبط بالزعم بعدم ارتكابه أى أخطاء. عندما تخلو شخصية المرء من أية عيوب، فإنه ليس من المستحيل أن يكون إنسانًا صالحًا. فقط يكون الإنسان صالحًا إذا توفرت له إمكانية الوقوع فى الخطأ.

وبطبيعة الحال، يقر القرآن بطبيعة محمد البشرية ويلومه فى بعض الأوقات لشعوره بالحرج من ذلك ويحثه القرآن على أن يتصرف كإنسان. وعلى سبيل المثال، عندما شعر محمد بانجذاب عاطفى تجاه زينب، زوجة زيد، الابن الذى تبناه محمد، نجد أن القرآن قد حثه على التعبير عن مشاعره؛ بل حثه على أن يتزوجها بعد أن طلقها زيد. لقد كانت زينب من أقارب محمد المقربين والتى طلب يدها لابنه زيد بعد أن تبناه، وقد كان زيد عبدًا وتم عتقه. لم تكن زينب سعيدة لأنها قد تمنت أن يتزوجها محمد وتمنت عائلتها نفس الأمر. لم ينجح الزواج بين زيد وزينب فطلب زيد الطلاق. لم يكن يسمح القانون التقليدى/ العرفى فى شبه الجزيرة العربية، حتى ذلك الوقت، لأى شخص أن يتزوج زوجة ابنه المطلقة. وفى هذا السياق صرحت الآية رقم (37) فى سورة الأحزاب بهذا النوع من الزواج، وهو ما سمح لمحمد أن يتزوج بزينب.

لقد أنشأ الإسلام نوعًا جديدًا من التعايش المجتمعى المشترك، لم تلعب فيه روابط الدم دورًا مركزيًّا، بل كان هناك نمط أرقى من الأخلاقية يتعلق بكونها أساسًا للقيم المجتمعية

إن هذا المثال يوضح كيفية تواصل القرآن، ولذلك فإننا اليوم لا نجد أنه من السهل قراءة سياقات القرآن بخصوص محمد ومجتمعه أو بخصوص اليهود والمسيحيين فى ذلك الوقت. وفى حالة قوانين الزواج المتعلقة بالأبناء الذين تم تبنيهم وزوجات الأبناء، فإننا لا نفهم على الفور الرسالة بدون الإشارة إلى الأحداث والمواقف فى ذلك الوقت.

مجتمع المؤمنين
والحاجة للتشريعات القانونية

تمثل الهجرة بداية العصر الإسلامى، وتعتبر سنة 622 هى السنة الأولى فى التقويم الإسلامى. وفى المدينة تغيرت وظيفة محمد من كونه قائدًا روحيًّا إلى قائد لمجتمع سياسى. ولكى نفهم هاتين المهمتين كما وردتا فى القرآن، لا بد أن نستحضر الموقف السياسى فى شبه الجزيرة العربية فى بداية القرن السابع. يتساءل العديد من قارئى القرآن عن سبب وجود سياقات تتعامل مع الأمور التشريعية والعملية. ويتولد عندهم شعور بأن مثل هذه الأمور غير ملائمة لأن ترد فى نص مقدس.

إن حالة التوتر/ الارتباك هذه تنبثق من سياق متأثر بالمسيحية. يقارن البعض حياة محمد بحياة عيسى فى حين أنه لا تتشابه أنماط التنظيمات التشريعية والقانونية لكى تصح المقارنة. لا يجب على المرء أن ينسى حقيقة أن السياقات التاريخية لكلتا الشخصيتين تختلف بالكلية. لقد عاش عيسى فى عالم تتسيده الإمبراطورية الرومانية. لقد كان هناك نظام قانونى قائم بالفعل بالإضافة لوجود قوة عسكرية قامت بتأمين هذه الإمبراطورية وأقامت القانون كذلك. وعاش اليهود تحت راية الاحتلال الرومانى، ولكن فى سياق استقلال محدد وأمان تشريعى.

وفى شبه الجزيرة العربية، فى بدايات القرن السابع، لم يكن هناك دولة ولا نظام قانونى ولكن كان هناك ما يعرف بالأخلاقيات القَبَلية. تطلبت هذه الأخلاقيات القبلية الطاعة التامة والمطلقة للقبيلة وكان الطرد هو مصير كل من يخرج على هذه الطاعة ومن ثم يفقد الحق فى أن يحميه المجتمع. لقد كانت روابط وأواصر الدم هى العامل الحاسم. لم يتعلق الأمر بكون القبيلة على صواب أو على خطأ. وحين تكون روابط الدم هى المعيار الحاكم، فإنه لم يكن هناك مجتمع بالمعنى الحقيقى للكلمة. ومع بداية دعوة محمد التبشيرية، بدأ مجتمع شبه الجزيرة العربية فى التطور. لقد أنشأ الإسلام نوعًا جديدًا من التعايش المجتمعى المشترك، لم تلعب فيه روابط الدم دورًا مركزيًّا، بل كان هناك نمط أرقى من الأخلاقية يتعلق بكونها أساسًا للقيم المجتمعية. يمكن لنا قراءة هذا

التطور في المعاهدة المعروفة باسم «الصحيفة» والتي تميز وجود ثلاثة مجتمعات: اليهود والعرب والمؤمنين أو المسلمين. يتضح ذلك أيضًا في القرآن، خصوصًا في بداية سورة البقرة حيث يتم تقديم هذه المجتمعات الثلاثة من خلال المصطلحات الدينية على هيئة المنافقين والكافرين والمؤمنين.

يبدو وكأن مجتمع المؤمنين الجديد يُكون قبيلة من طراز مختلف. وبشكل مبدئي، فإن الأعضاء الجدد لهذا المجتمع يأتون من قبائل مختلفة. إنهم ليسوا من أقرباء النبي ولكنهم أناس يشاركونه اعتقاداتهم. ولكي يتم تأسيس هذا الشكل الجديد من المجتمع، ظهرت الحاجة إلى وجود تنظيمات أو تشريعات قانونية محددة لأمور مثل الزواج والطلاق والضرائب والأعمال. وهذه التنظيمات التشريعية توجد في الكثير من التعليمات العملية والقانونية بالقرآن. لقد ساهم هذا الأمر بقدر كبير في إنجاح عملية الانتقال من عالم القبيلة إلى نظام من الأمن القانوني. وبشكل طبيعي، فإن هذه التشريعات الفردية يجب أن تُفهَم في سياق القرن السابع. ومن غير المعقول أن نظن في إمكانية أو وجوب نقل هذه التشريعات إلى عالمنا اليوم على الشكل الذي تواجدت عليه. إن هذه التشريعات الموجودة في القرآن تنتمي إلى الوحي ما بعد المكي سواء في المدينة أو في مكة بعد أن دخلها المسلمون.

في السنة الثانية في المدينة، تأججت صراعات عسكرية مع أهل مكة، وكانت البداية في موقعة بدر، وفيها حصل المسلمون على انتصارهم الأول ضد أهل مكة، بينما في معركة أحد، وهي المعركة الثانية، هُزِم المسلمون. هنا سنجد محمدًا في وظيفته الثالثة؛ أي كقائد عسكري. إن هذا الأمر يسبب حيرة عظيمة للمسيحيين المعاصرين وللمسلمين الذين يعيشون في مجتمعات تتأثر بالمسيحية بشكل كبير. وكما يشير القرآن غالبًا إلى هذه الصراعات العسكرية، فإنه يمكننا القول بأنه، وخلال هذه الأعوام، وقع على عاتق محمد الكثير والكثير من الالتزامات المتعلقة بمصلحة المجتمع.

لا يمكن للمرء أن يتوقع من قائد تولى المسئولية السياسية لمجتمع معين، أن يقف بكامل قوته خلف هذا المجتمع ليدعمه - حتى وإن كان هذا يعني وجوب اتخاذه لقرارات تقف ضد مصلحة مجتمعات أخرى. وبالمثل، فإن الصوت المقدس/ الإلهي الذي يتحدث من خلال القرآن هو إله هذا المجتمع. إنه إله يمتلك صوتًا منحازًا وداعمًا لمجتمعه ضد الآخرين. إننا نعرف هذه الظاهرة من العهد القديم، الذي انحاز فيه الإله؛ إله اليهود وبني إسرائيل، لهم دائمًا حتى عندما كانوا يُدانون، والإدانة تصب في مصلحتهم أيضًا. إن اللّه في القرآن يقوم بنفس الأمر، فيدعم مجتمع المؤمنين حتى وهم يتعرضون لعقابه لارتكابهم خطأ ولانحرافهم عن أوامره. إن هذا الأمر يبدو محيرًا ومربكًا حتى لقارئ اليوم الذي ينظر لهذا الأمر وهو يقف على مسافة زمنية بعيدة جدًا عن الفترة التي شهدت هذه الأحداث.

الخاتمة

كيف تمت إعادة تشكيل رسالة محمد بعد موته بينما استمر المجتمع السياسي في التطور؟ من الواضح أن محمدًا عومل كنبي اللّه ورسوله وكذلك كقائد سياسي. لقد احتاج المجتمع لهذا القائد السياسي؛ ومحمد هو النبي الأخير ورسول اللّه.

يجب تحليل تطور المجتمع السياسي بشكل أكثر عمقًا وأكثر تفصيلًا لكي نفهم هذه العملية التي شهدت التحول من مجتمع قبلي إلى إمبراطورية. إن هذه العملية مهمة لكي نُعمق من معرفتنا بالإسلام؛ فهي أهم من مجرد كتابة بحث أو مقال لاهوتي آخر بخصوص هذا الموضوع أو غيره.

والآن، يعتبر السؤال الأكثر إلحاحًا هو: كيف يمكن لنا أن ننشر هذه المعرفة بين الجمهور؟ إن هذه المشكلة تظل حاضرة للمسلمين الذين يعيشون في الدول المسلمة وكذلك للمسلمين الذين يعيشون في الغرب. يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار كيفية نقل هذه المعلومات للأطفال والكبار. إن أغلبية المسلمين غير مدركين لهذه الخلفية التاريخية ويميلون بشكل أكبر إلى اقتباس النصوص وشرحها بشكل حرفي، وبالتالي، فإنهم يفهمونها خارج سياقها التاريخي ويقومون بتأويلها كقوانين كونية إلهية للمؤمنين في كل وقت. إن هذه طريقة مبسطة لقراءة القرآن، ولكنها طريقة غير صحيحة تاريخيًّا. وتنبثق هذه الطريقة من تجاهل حقيقة أن القرآن رسالة ووحي ■

تم نشر الشكل النهائي لهذه النسخة من مقال نصر حامد أبوزيد في:
Philosophy & Social Criticism, vol 36 nos 3–4 March and May 2010, SAGE Publications Ltd, (LA, London, New Delhi, Singapore and Washington DC)